جذور التكفير

لماذا يتبع الناس هؤلاء الأئمة إلى الدرجة التى تجعلهم يسلمون لهم أنفسهم وأموالهم ويهجرون من أجلهم حياتهم وأسرهم ومستقبلهم كله!! كيف يكون لشخص واحد كل هذه القوة المؤثرة على الآخرين!!

وكيف يمكن لشخص مثل الشيخ الفرماوى، الذى أسس «جماعة الفرماوية»، أن يقنع اتباعه بأن يتركوا التعليم فى المدارس والجامعات أو حتى مجرد قراءة الكتب، حتى لو كانت كتب أئمة الإسلام وأن يتبعوا ويأخذوا علم الشيخ الفرماوى فقط لأنه شخص مهم.. والالهام جزء من الوحى ووصل به الأمر أنه حرم عليهم «الدواء» لأنه قال إن الصحة والمرض بيد الله والأخذ بأسباب «العلاج المادية» من الذهاب إلى الأطباء وتناول الدواء وإجراء العمليات الجراحية كلها تعتبر كفر بالله واعتراض على قدره.

والأعجب من هذا أن يجد الشيخ الفرماوى أتباعا له فى محافظات الوجهين القبلى والبحرى بل ينقل أحد تلاميذه مذهبه وعقيدته إلى ماليزيا.

ويعود السؤال أكثر إلحاحا.. لماذا انتشرت الجماعات التكفيرية!! هل هو الفقر واليأس والزحام الشديد وفقدان الأمل فى المستقبل والمعاناه اليومية من أجل جنيهات قليلة لايمكن أن تصنع مستقبلا .. هل هى الساعات الطويلة التى يمكن أن يقضيها شخص ما وهو يركض وراء أتوبيس وإذا نجح فى اللحاق به فإنه وبسرعة البرق يحشر جسده المتعب المنهك بين الأجساد الأخرى حتى يصل إلى مكان ما.. كلما اقترب منه ترك خلفه الأنوار المتلالئة ليغرق فى ظلام المناطق الفقيرة وروائحها النفاذة.. وحياة أهلها المكشوفة التى تمر أمام عينيه كلما اقترب من جحره أو عشته.. فالرؤية إجبارية والعيون تخترق مابين الفجوات

الواسعة بسهولة شديدة.. ومابين نهاية الرحلة وبداية اليوم والسير بين السيارات الفارهة وواجهات المطاعم الفاخرة ومحلات الملابس المستوردة.. ورصد ملامح السعادة على وجوه الآخرين.. فلمن يكون اللجوء ولا حل ولا أمل.. فى الدنيا الصعبة المنال.. فليتركها إذا لم يستطع الحصول عليها وليجد لنفسه مبررا سيقوده إلى الجنة ليحظى بالنعيم فكل ماحوله يضج بالكفر والكفار وما يردده الإمام حق واتباعه حق وهجر المجتمع الذى لم يعطه شيئا حق وعدم الاستماع إلى رجال الدين الذين لم تطأ أقدامهم يوما منطقة فقيرة حق فلماذا يستمع إليهم اليوم وهم لايعرفون عنه شيئا فليحاربهم هم أيضا.. وليحارب الدولة والنظام الذى صنعه بعد هزيمة يونيو المروعة وفساد قيادات نظام ذلك الزمان والألم والفقر والضيق ونداءات الصبر والشد على البطون حتى جاء النصر ولم تتحقق الوعود بعد فلم يحصل الفقراء إلا على المزيد من الأحزمة التى تخنق أرواحهم قبل بطونهم وتشرد أبصارهم إلى خارج الحدود لتلتقى آلامهم بآلام الفلسطينيين والصوماليين وأهالى الشيشان وأفغانستان وأخيرا العراق ليشعر أبناء الجماعات التكفيرية أن الأنظمة والحكام العرب قد فرطوا فى أرض فلسطين بل ووضعوا أيديهم فى أيدى الامريكان الآباء الروحيين لدولة إسرائيل.. فأطلقوا عنان كل مشاعرهم وإحباطاتهم وآلامهم وعجزهم ونقدهم لمحاربة أنظمتهم فى البداية حتى يصلوا إلى النصر فى النهاية.

ومن أجل ذلك أحلوا دماء المسلمين وغيرهم لأنهم رضوا بالعيش فى تلك المجتمعات الكافرة من وجهة نظرهم والتى يعيش فيها الأقباط الذين أحلوا دماءهم وأموالهم لنقضهم العهد ومحاربتهم للشريعة الإسلامية. ويرى الدكتور والعالم الإسلامى الجليل يوسف القرضاوى أن هناك خللا فى فقه الجهاد والنظرة إلى غير المسلمين واعتقادهم وجوب قتال كل الكفار وإن كانوا مسالمين.. وهناك خللا فى العلاقة بأهل الذمة من النصارى والأقباط وغيرهم ومالهم من حقوق مرعية وحرمات مصونة.

وهناك خللا فى فقه تغيير المنكر بالقوة وماله من شروط يجب أن تراعى

وهناك خللا فى فقه الخروج على الحكام وما صح فيه من أحاديث وفيرة تقيده وتضبطه ولا تدع بابه مفتوحا على مصراعيه لكل من شاء..

لم يتوقف زعماء التكفير عن الظهور مكونين جماعات بعضها كتب لها التوسع والبعض الآخر لم تنجح إلا فى تجميع أعداد محدودة من الأتباع، ولكن الخطورة الحقيقية أن تلك الجماعات أصبحت تشبه الطيور المهاجرة التى تنقل أعشاشها وأفراخها من مكان إلى آخر لتستقر فيه إلى حين.. فكل جماعة يخرج منها مجموعة تنتشر فى محافظات مصر وفى خارجها أيضا لتنقل الفكر وتزيد عليه من اجتهاداتها الخاصة وهم يؤثرون فيمن حولهم بالفعل فحتى لو لم يعتنق من يستمع إليهم الفكر التكفيرى فهم يعتادون على أساليبهم فى الحياة لتتأصل فيهم وتؤثر فى رؤيتهم وعلاقتهم بالمجتمع، ففى حالة لطبيب التزم دينيا هو وزوجته وأبناؤه أصدر لهم أمرا بعدم التعامل إلا مع جزار واحد لأنه شديد التدين ويطعم البهائم التى يذبحها طعاما حلالا. ونفس الأمر مع «الفرارجى» وتطور الأمر بعد ذلك فحرم عليهم تناول الطعام حتى فى منازل أقاربهم خوفا من أن تكون مصادر الطعام لديهم تأتى من حرام وأمرهم عند زيارة أقاربهم بأن يأخذوا طعامهم معهم حتى يطمئنوا أن يكون طعامهم حلالا.. وأصبحنا كثيرا ما نستمع فى حياتنا اليومية إلى أحكام التكفير التى يطلقها البعض على مخالفيهم بدون سند شرعى فنجد جماعة مثل جماعة الشيخين التى حملت اسمها نسبة إلى مؤسسيها الاثنين عاصم ونسيم وكان عاصم إبراهيم الضوى واحدا من أتباع شكرى مصطفى وخرج على الجماعة بعد إعدام شكرى ليؤسس مع نسيم التابعى أو الشيخ لبرهان جماعة الشيخين وكالمعتاد كان لقاؤهما الأول فى السجن وعهدهما الأول أيضا به بعد أن وضعا أسسا لدعوتهما المخيفة فقالا إن مصر دار كفر ونظامها كافر وان المصريين جميعهم كفار إلا من نجا منهم ودخل الجماعة وكل الجماعات الموجودة كافرة ووصموا المساجد بأنها معابد للجاهلين ولا يجوز الصلاة فيها وأن إطلاق اللحية من الإيمان ومن يحلق لحيته فكأنه سجد للأصنام ويتم تكفيره ومن لاترتدى النقاب فهى أيضا كافرة.. وزادوا فى

تطرفهم وسذاجتهم الفكرية فقاموا بإلغاء عدة النساء الشرعية للأرامل والمطلقات واستبدلوها بالتحاليل الطبية التى تجزم مسألة الحمل من عدمه.

ووضعوا عدة ضوابط شديدة الحسم فيمن يخالف تلك الأسس.. للحفاظ على عقيدة الجماعة وهو إجراء دائما ما يلجأ إليه الإمام أو الزعيم للحفاظ على تماسك جماعته، فلابد أن يضع عقوبات رادعة قد تصل إلى التصفية الجسدية وهو مافعله عاصم ونسيم فحكما على أى عضو من الجماعة إذا صلى مع شخص من خارجها مهما كانت درجة قرابته له أو الظروف التى دفعته إلى الصلاة بالكفر لانه صلى مع كافر أما إذا تجرأ عضو على الاختلاف مع الشيخين أو مناقشتهما أو الاستفسار عن أمر ما فينزل عليه العقاب الهائل.. وهذا العقاب لا يقتصر على العقاب المعنوى وإنما يدمر حياة الشخص نهائيا فيتم عزله من الجماعة ومصادرة أمواله وطرده من منزله وتطليق زوجته والعقاب هنا هائل لأنه يتعارض مع ماقرره الشيخان لانهما إذا سمحا بالمعارضة.. أو المناقشة فيمكن بعد ذلك أن يطمع أحد من أعضاء الجماعة فى الوصول إلى قمة التنظيم.. فلا مجال لديهم للفكر أو المناقشة بعد أن أقاما على الجماعة حصارا حديديا ولأن المدارس كافرة والجامعات أيضا وكل أوجه التعامل مع النظام والمجتمع موصوم بالكفر.. فأصدر الشيخان أمرا إلى كل طلبة الجامعة بترك دراستهم ليتولوا تعليم أطفال الجماعة وتنشئتهم على عقيدتهم منذ طفولتهم.

وكانت الخطورة الحقيقية لهذه الجماعة فى انتشارها فى معظم محافظات مصر عن طريق (المصطفون) وهم بدرجة أمراء الجماعة.. ويحصلون على تلك الدرجة بعد اختيارهم من قبل الشيخين.. اللذين يوكلان إليهم مهمة نشر الدعوة فى محافظاتهم.

ورغم الغموض الشديد والطقوس التى حرص الشيخان على أن يتبعها أعضاء الجماعة إلا أنها انتشرت واعتنق أفكارها مجموعة كبيرة.. مع تشابه طقوسهم مع الجماعات السرية الغربية.. فعندما يعتنق شخص فكر الجماعة لابد أن يمر

باختبارات شديدة الصعوبة حتى ينال ثقة الشيخين ثم يطلب منه الاغتسال ويساق إلى «عاصم ونسيم» ويقف بين أيديهما لينطق بالشهادة أمامها ويعلن إسلامه على عقيدتهما.. ثم يقوم بمبايعتهما على السمع والطاعة.. ويصبح بعدها عضوا فى الجماعة ويسمح الشيخان له بأن تتم مساعدته للحصول على زوجة ومسكن.

وفعلوا مثل ما سبقهم إليه الخوارج بالضبط وكأن السنوات الطويلة التى تفصل مابينهما لم تكن فأمروا أتباعهم بحفظ القرآن والسُنة وقيام الليل والتعبد.. واتباع تفسيراتهم وشروحهم للقرآن والسُنة، وهو ما يجعلنا نستحضر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قال عنهم قبل ظهورهم «تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ولكن لا يتجاوز إيمانهم تراقيهم».

ومع كل غرابة وشذوذ دعوة تلك الجماعة إلا أنها استطاعت أن تجد لها أتباعا فى عدد كبير من قرى ومحافظات مصر، فانتشر أتباعهم فى الزقازيق، ومنيا القمح، فاقوس،السنبلاوين، أجا، المنصورة، نبروه، بيلا، كفر سعد، فارسكور، عزبة البرج، المنزلة، إدكو، الإسكندرية وتحديدا فى منطقة المكس،أبو كبير، الفيوم والعريش وتحديدا بين بعض قبائل البدو بالشيخ زويد وكان أميرهم هناك (محمد الزجير)..

ويطرح العالم الكبير قضية غاية فى الأهمية وتجعله يضع يده على بيت الداء فى تفسير دوافع التكفيرين عندما يقول إن أزمة هؤلاء فكرية « فى الدرجة الأولى» لقد تبين أن آفة هؤلاء من الأغلب فى عقولهم وليست فى ضمائرهم.. فأكثرهم مخلصون ونياتهم صالحة وهم متعبدون لربهم شأنهم شأن أسلافهم من الخوارج الذين كفروا عامة المسلمين وكفروا أمير المؤمنين على بن أبى طالب واستحلوا دمه ودماء المسلمين معه وصحت الأحاديث فى ذمهم من عشرة أوجه كما قال الإمام أحمد.

ويذكرنا الإمام يوسف القرضاوى فى كتابه «الإسلام والعنف نظرات تأصيلية»

«بتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم من الأعمال الطائشة والتصرفات الرعناء التى قد يقوم بها بعض الناس الطيبين بنوايا حسنة وبواعث نبيلة دون أن ينظروا فى مآلاتها ويفكروا فى وخيم عواقبها وذلك لقصر نظرهم وضيق أنفسهم.. فإن لم ينتبه المجتمع لهم ويأخذ على أيديهم ويمنعهم من الاستمرار فى تفكيرهم الأخرق فإنهم سيودون بالمجتمع كله وينتهى بهم طيشهم مع حسن نيتهم إلى هلاكهم وهلاك الجماعة كلها معهم».

وفى ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كممثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضها أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا من نصيبنا خرق ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أوضح لنا أن لانترك بعض الجهلاء والحمقى ليفرقونا بدعوى أنهم مخلصون ولابد أن يتكاتف أهل العلم جميعا فى اقتلاع جذور التكفير المغروسة فى مجتمعنا والتى ننتظر اللحظة المناسبة لتنمو من جديد.